إرضاء الخلق في معصية الخالق

obeikandi.com

obeikandl.com

إرضاء الخَلق

في معصية الخالق

لاشَكَّ أنَّ إرضاءَ الخَلْقِ في معصيةِ الخالِقِ يُفْقِدُ الإنسانَ رِضَى ربِّه، ويُبعده عن وَلايته ونَصْرِه.

ومَن اتبع ما أسخَطَ اللّهَ، وَكَرِهَ رضوانَه، ضَلَّ سَعْيُه، وَحَبِطَ عملُه.

ومَن أرضى اللّهَ أغناه اللّهُ برضاه، وكَفَاه، ولم يجعل حاجتَه لأحدٍ سواه.

و « لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق ».[1]

وكثيراً ما يسعى الناسُ لمرضاةِ غيرِهم في معصيةِ الخالق؛ طلباً لمنفعةٍ عاجلةٍ ينشُدونها لأنفسهم، أو يدَّخِرونَها لِمَنْ وراءهم.

والويلُ ـ كُلُّ الوَيْلِ ـ لمن ترك عيالَه بخيرٍ، وَقَدِمَ على ربِّه بشَرٍّ.

ولذا وَجَبَ أن يُراقبَ الإنسانُ نفسَه، وأن يُصلح نيَّتَهُ، ويُمسكَ لِسَانَهُ؛ حتى لا يقع فيما يُغضِبُ اللّه، أو يجلب سخطه.

« وَرَحِمَ اللّه عبداً قال خيراً فَغَنِمَ، أو سَكَتَ فَسَلِم ».[2]

ولو استطاع الإنسانُ مع نفسه أن يُمسكها عمَّا يُرْدِيها ويُنقصها، لَكَانَ من أوَّلِ ذلك ألاَّ يكون "إمَّعَة"يقول: « إنْ أحسن الناسُ أحسنتُ، وإن أساءوا أسأتُ » فإنَّ هذه التبعية والمطاوعة ـ دونَ نَظَرٍ وتدبر ـ تجعل

---

(1) رواه أحمد (١٠٩٥) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(2) شعب الإيمان: ٤/٢٤١.

الإنسانَ مُتَّبعاً لأهواء الناس، لا للحق الذي أُمِرَ باتِّباعه.

ومَن اتَّبَعَ أهواءَ الناس ـ بغير هُدىً من الله ـ هَلَكَ بهلاكهم، وخَسِرَ بخُسرانهم.

والرسولُ ﷺ ينْهَانَا عن المطاوعة المطلقة دون حدودٍ أو ضوابط؛ فإن المطاوعة لا تكون إلاَّ فيما يُرضِي الله، وهي ـ عندئذ ـ طاعة للخالق لا للمخلوق.

فيقول ﷺ: « لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا ».[1]

فليرغب الإنسانُ فيما يُحبُّ اللهُ ويَرضى، ويُمسك نفسَه عمَّا يُغضبه ويُسخطه؛ فإنَّ الله قَرَنَ وعدَه بوعيده؛ ليكون العبدُ راغباً راهباً.

فإن المراحل التي يَمُرُّ الإنسان بها، والمضايقَ التي يقعُ فيها، تستلزم أن يأخذ الإنسانُ من نفسه لنفسه، ومن دُنياه لآخرته، ومن الحياة قبل الممات؛ فإن الموتَ قادمٌ لا محالةَ.

« والموتُ أهونُ مِمَّا بعده، وأشدُّ مِمَّا قبله ».[2]

فإنْ فاتك خيرٌ فأدركه، وإنْ أدركك شَرٌّ فاسبقه.

واعلمْ أنَّ عليك من الله عُيُوناً تراك.

---

(1) الترمذي: كتاب البر والصلة، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(2) رواه أحمد من حديث أنس (١٢٥٨٨) وإسناده ضعيف.

فاحرصْ ـ دائماً ـ أن تكونَ حيث يُحبُّ الله. وأحسن كما أحسنَ الله إليك، واعبده كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك.

واعلمْ أنَّ أطوعَ الناس لله أشدُّهم بُغضاً لمعصيته.

وأنَّ الله يرى من باطنك ما يرى من ظاهرك، فلا تُنافِقْ، ولا تُرائي، ولا تهن.

واستَعِنْ بالله ولا تضعف، وأصلِحْ نفسَك يُصلح لك الناس.

و« اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ».[1]

واحذَرْ نفسَك؛ فإن النفسَ أمارةٌ. ولكل نَفْسٍ شهوة، وإذا أعطيتها تَمَادَت. والنفس راغبة إذا رغَّبتها.

والنفسُ كالطفلِ إنْ تُهمله شَبَّ على

حُبِّ الرَّضَاعِ وإن تفطمه ينفطم

وكُنْ مع الحق حيث كان؛ فلا نجاةَ إلاَّ بالحق، ولا فوزَ إلاَّ بالصِّدق.

ولا تتبع الباطلَ، وكُنْ من أهله على حَذَر؛ حتى تسلم نفسُك من الخضوع لهوى نفسك، أو أهواء غيرك، فتُرضِي الخلق في معصية الخالق، أو تركن إلى هوى نفسِك وتنسى ربَّك؛ فإن مَن نَسِيَ اللَّهَ أنساه اللَّهُ نفسَهُ، فأساءَ وهو يظنُّ أنه يُحسنُ، وأفسدَ وهو يُحبُّ أن يُصلِح. وذاك هو الضَّلالُ والخُسران.

---

(1) الترمذي: كتاب البر والصلة، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

كُنْ مع الحقِّ ليثْقُلَ ميزانُك « فحقٌّ لميزانٍ يُوضَعُ فيه الحقُّ أن يكون ثقيلاً، وحَقٌّ لميزانٍ يُوضَعُ فيه الباطلُ أن يكون خَفِيفاً ».[1]

ولا فَلاحَ إلاَّ لِمَنْ ثَقُلَتْ موازينُه.

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ ﴾.[2]

إنَّ كثيراً من الناس يُريدُونَكَ أن تكونَ لهم. وأهواءُ الناس متعددة، ومآربهم مختلفة.

وإرضاءُ الناس غايةٌ لا تُدْرَك. ولابُدَّ لحياةِ الناس من ميزانٍ تُوزَنُ به الأعمال، ومن سبيلٍ تستقيمُ معه الخُطَى والمسير.

ومن فضل الله ورحمته ـ وهو أعلمُ بخَلْقِه ـ أنْ وَضَعَ الميزانَ، وحَدَّد السَّبيل، وأرسلَ الرُّسُلَ؛ ليكونوا أُسْوةً للناس في الأخذ بما وَضَعَ من الميزان وَحَدَّدَ من سبيل.

ولكنَّ الناس ـ وهم يخضعون للهوى ـ يتَّبعون سُبُلاً متعددةً، فيتفرَّقون ويبتعدون عن الصراط المستقيم، ويضلُّون السبيل.

وذاك ما وصَّى به عبادَه؛ ليتَّقوا سوءَ العاقبة والمصير.

---

(1) من قول أبي بكر في وصيته لعمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(2) الأعراف: ٨، ٩.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.(1)

فَأَفْلَحَ واتَّقى مَن حَفِظَ نفسَه مِن أهواء الناس.

ومَن كَرُمت عليه نفسُه، هانت عليه شهوتُه، فعصمها بحُسن الاستجابة لله وللرسول، وأيقن أنْ ليسَ لنفسه ثَمَنٌ إلاَّ الجنة، فلم يَبِعْها إلاَّ بها.

فلم يجد الناسُ عنده ما يطمعون فيه، من إرضائِهم في معصية الله.

وَمَن آثَرَ اللهَ على هَوَاهُ، لَقِيَ اللهَ فَرَضِي عنه وأرضاه.

إنَّ شهوةَ الإنسان قد تُرديه، ورغبتُه في المنافع العاجلة قد تدفعه إلى إرضاءِ مَن ينشُدُ منهم منفعةً، أو يتوقَّى بهم مَضَرَّة.

وَمَن أيقنَ أنَّ ذلك كُلَّه بيدِ الله وحده، عَلِمَ أنَّ الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوه لم ينفعوه إلاَّ بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضُرُّوه لن يضروه إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليه.

فَلَمْ يقع منه إلاَّ ما يُرضِي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

وَمَن كَرُمَت عليه نفسُه، كَفَّها عن كثيرٍ من الرغائب؛ لِتُرَدَّ إلى المحامد والمكارم.

قال الحسنُ البصري رحمه الله: « كان مالكُ بنُ دينار يطوف بالبصرة في الأسواق، فينظر إلى أشياءَ يشتهيها، فيرجع ويقول لنفسه: أَبْشِري؛ فوالله ما حرمتُكِ ما رأيتِ إلاَّ لكرامتك عليَّ ».

---

(1) الأنعام: ١٥٣.